سيئات القرن الماضي

من مقالة لاحد علماء الفرنسيس نشرت حديثاً في احدى المجلات العلمية

من القضايا التي استلفتت الانظار انتشار الامراض العصبية في القرن التاسع عشر وخصوصاً في النصف الثاني منه انتشاراً لم يُعهد من قبل على مادخل المجتمع من الاصلاحات والتقلبات في حالتيه الطبيعية والادبية . فلو طاف الباحث نصفي الكرة الارضية وراقب عن أمم شرقها وغربها شمالها وجنوبها ،مدنها الصغرى والكبرى ،اصقاعها الباردة والحارة، لسمع الانسانية تئن من تزايد الامراض العصبية كل يوم وقد أصيبت بها أرباب الصناعات والحرف على اختلاف الاعمار والجنس ولم تعمل فيها انقلاب العادات وطرق المعيشة وأساليب الفكر والحس على ماحصل من ارتقاء العلوم الطبيعية وعلوم الحياة التي بها عرف ما كان من قبل مجهولا من أمراض الدماغ وما انتهى اليه العلم من طبائع الامراض العصبية وعللها ودلائلها .

وارتقاء العلوم الطبيعية في هذا القرن لا يرفع الملام عن اطباء القرون الماضية لسكوتهم عن الامراض العصبية . فقد نراهم أحسنوا معرفة الاحوال الطبيعية وظواهرها وراقبوها أحسن مراقبة وان لم يعلقوا عليها شرحاً مرضياً . عرفوا حق المعرفة حقيقة البول السكري والصرع والتشنج وغيرها من الادواء ولم يعرفوا الخناق وأنواع الحميات والهزال العصبي وهذيان الشيوخ وغيرها من الاوصاب المنتشرة بين أهل جيلنا . لا جرم ان كثرة الامراض العقلية تستدعي نظر الحكومات والباحثين في الصحة والاخلاق فقد زاد عدد المجانين في أوربا وأميركا زيادة عظيمة في أواخر القرن الماضي . والجنون على الجملة أربع طبقات : جنون مطبق، وجنون خبل، وجنون ناتج

من خبال الشيخوخة والبلاهة والتغفل « والجنون كما قالوا فنون » ويكون جنون الخبل ناتجاً من تعاطي الالكحول فان المدمنين للشراب مابرحوا ينمون نمواً عجيباً . وانكلترا أكثر البلاد التي زاد فيها الجنون في هذه الاثناء . فقد كان عدد المعتوهين فيها سنة ١٨٦٦ ـ ٣٠ الفاً فصار سنة ١٨٩٧ ـ ٩٩ الفاً فالمعتوهون الآن واحد في كل ٢٩٣ بانكلترا . وقد ثبت لدى اطباء بريطانيا ان مجانينهم كثروا بكثرة انهماك القوم في تناول الاشربة الروحية فان ٣٣ في المئة من المعتوهين هم ممن يتعاطون المسكرات عندهم .

وقد نشر حديثاً أحد أنطس الاطباء بحثاً دقيقاً في الجنون بالولايات المتحدة فثبت عنده بالاحصاء ان أكثر الولايات عرضة للجنون هي التي كثر تعاطي الاعمال الصناعية فيها في جنوبي البلاد. أما البلاد الزراعية فان المصابين بها أقل من ذلك فتجد في مقاطعة الماساشوست مجنوناً في كل ٣٤٨ ساكناً على انك لاتجد غير مجنون واحد في كل ٩٣٥ من مقاطعة الاركانساس . والجنون بين السود أقل انتشاراً منه بين البيض . وما دام الزنوج نازلين في الارياف فهم في مأمن من ضياع العقل ولكن متى نزلوا الحواضر وأخذوا في مجاراة البيض ومجاذبتهم حبل الجهاد الاجتماعي يكثر فيهم هذا الداء فيملأون البيمارستانات والمستشفيات .

ومن أمراض هذا القرن ماعرفه أطباء الاميركان من مرض دعوه نوراستينيا أو ضعف المجموع العصبي . مرض يكثر انتشاره في البلاد التي تزدحم فيها اقدام السكان . ولم يعرفه قدماء الاطباء فخلطه بعضهم بفقر الدم وبعضهم بالهستيريا ومعظم المصابين به ممن صرفوا قبل الوقت قوام العصبية في الافراط بالشهوات من الرجال وممن ضعف تركيبهن الناتي من التنعم

بتعدد الحمل والرضاع وممن أصابتهم خطوب وأهاويل واستولى عليهم أرق متتابع . بل ويصاب به أيضاً من صرفوا أوقاتهم منذ طفوليتهم في استعمال قواهم العقلية بما لا تسمح به تراكيبهم ولا يعوض الغذاء مايصرفونه من دقائق الدماغ على نحو ماترى شباناً انجزوا دروسهم ولم يستطيعوا التغلب على مصاعب الحياة فخانتهم قواهم وجهادهم فاضاعوا الثقة بأنفسهم وظنوها عجزت عن الغلبة على ماصادفوه في طريق حياتهم من المشاق فسدت قلة القوة الحيوية في وجوههم سبل الاعمال ، وقلبت لهم تقلبات الزمن ظهر المجن ، فامسوا ولا يرون الامور الامن وجهتها التي لا ينبغي ان ينظر اليها فيحدث عندهم كل مايرتاح اليه نظراؤهم كدراً وهماً . وتختلف اعراض هذا الداء حتى في الشخص الواحد في كل دور من أدواره ويكثر شيوعه بكثرة الشقاء الاجتماعي وتعدد أسباب الجهاد في الحياة .

ومن أمراض هذا القرن ابتلاء بعضهم بالحقن بالمورفين تخفيفاً لبعض آلام تصيبهم أو تفادياً من تصور عوارض يخشون الوقوع فيها وقد ابتليت المدنية الغربية بهذه الوصمة كما ابتليت المدنية الشرقية في الهند والصين وتركيا بوصمة التخدر بالافيون . ومعظم من يخدرون حواسهم بالمورفين تسكيناً للآلام والاوصاب هم أهل العقول الكبيرة وربما كانوا ممن يعجب الناس بمواهبهم العلمية . وثلث المصابين به من الاطباء . وفيهم قادة الجيوش ورجال السياسة . وقد اقيمت مستشفيات في انكلترا والمانيا وفرنسا (وأميركا) ليقلع الداخلون اليها عن عادة استعمال هذا المخدر بالوسائط العلمية والعملية .

ومن مفسدات الجنس البشري في هذا القرن التسمم بالكحول فقد زاد صرف المشروبات الروحية في النصف الاخير منه حتى قدر أحدهم

خمسة من المئة يموتون في مستشفيات باريز من فعل الالكحول . وأوربا سواء في استعمال الخمور الامم الا الاقاليم الشمالية الباردة الرطبة منها مثل روسيا والسويد ونروج وبلجيكا فان شرب الكحول مألوف فيها كل الألفة ويفرط السكان في تناوله وخصوصاً طبقات العملة منهم . فقد أصاب الفرد في فرنسا سنة ١٨٧٦ أربعة ليترات من الا لكحول في السنة وأصاب الفرد في المانيا خمسة وفي انكلترا ستة وفي روسيا من عشرة الى اثني عشرة الى عشرين ليتراً بحسب الولايات والصناعات . ولم يجد فرنسا إكثارها من وضع الضرائب على الالكحول اذ لم ينقص شاربوه .

والتسمم بالمسكرات اخف وطأة في البلاد التي تجود فيها الكروم مثل اسبانيا وايطاليا والبرتغال وجنوبي فرنسا وقلما يصيب الفرد فيها غير لتر واحد أو لترين في السنة . واختلفت بلاد الغرب في وضع قوانين لبيع المشروبات فاكتفى بعضها بالاحتكار وبعضها بضرب الضرائب الفاحشة . ونشأت فيها عدة جمعيات تحض الناس على الامتناع عن المسكرات . وهذه الجمعيات تعظم فائدتها كلما كثرت في كل صقع وناد وساعدتها الارادة الشخصية . وقد زاد عددها في انكلترا ونورمنديا وسويسرا والسويد يعرف القائمون باعبائها بني قومهم بمضار الالكحول الطبيعية والادبية والعقلية . وان الحكومات لتحسن صنعاً اذا أرادت معلمي المدارس على ان يقرئوا الاطفال شيئاً في قواعد الصحة ويدلوهم على ما تحدثه الا لكحول من سوء الاثر في الجسم وما ينتج الامتناع عنها من سعادة المرء والأسرة .